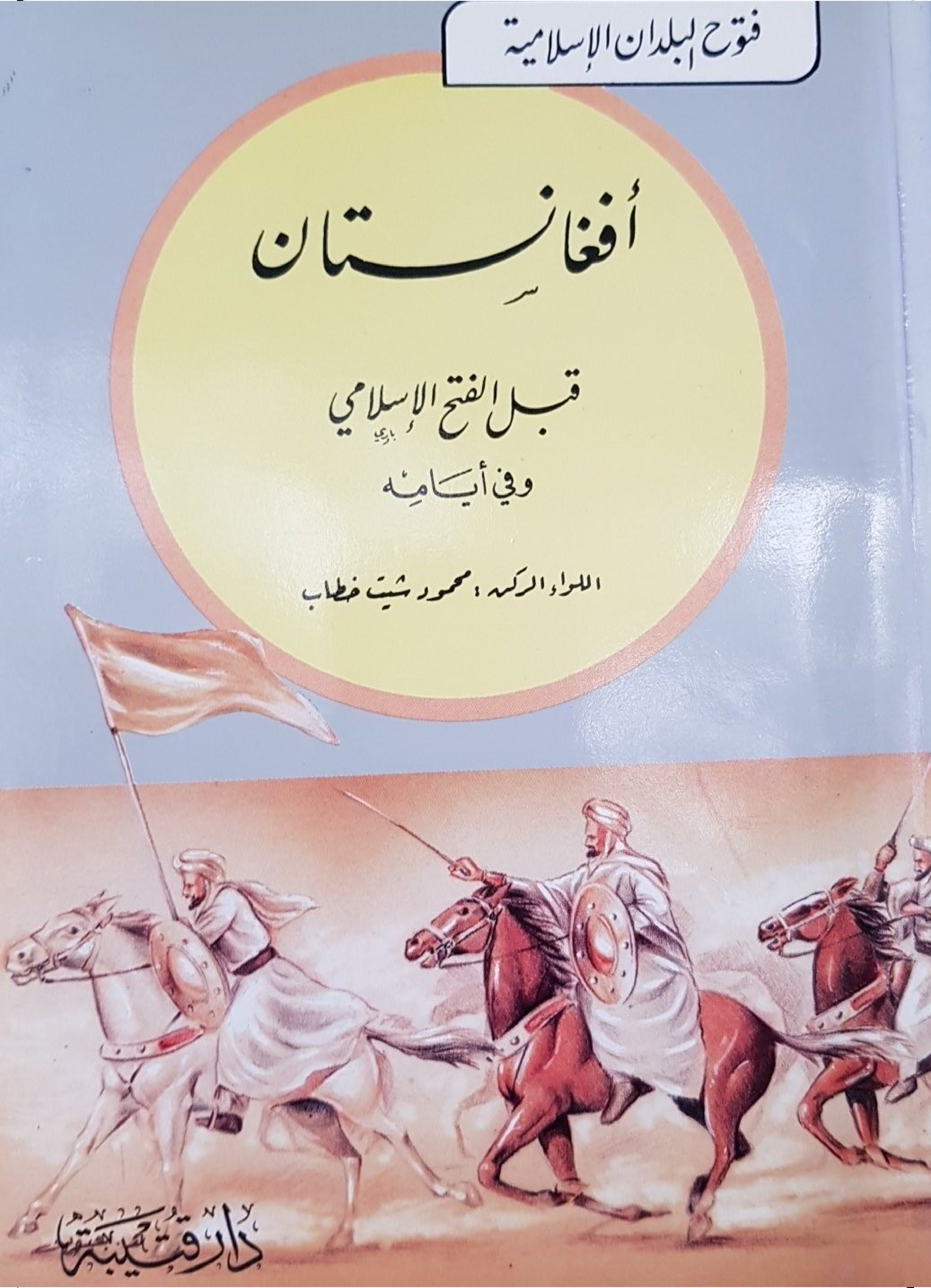

فتوح البلدان الإسلامية
أفغانستان
قبل الفتح الإسلامي
وفي أيامه
اللواء الركن: محمود شيت خطاب
دار قتيبة

فتوح البلدان الإسلامية

أفغانستان

قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن: محمود شيت خطاب

دار قتيبة



الطبعة الرابعة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م



المُقَدِّمَة

يُقصد بكلمة (أفغانستان) بلاد الأفغان ، وقد عُرِفت أفغانستان في التاريخ البعيد باسم : (آريانا) نسبة إلى الآريين ، وتعني كلمة : (آري) النبيل .

وتُعتبر أفغانستان مهد الآريين الذين هاجروا إليها من سهول (تُركستان) الغربية قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، ولو أن بعض المؤرخين يرجع تاريخ هجرتهم إلى أكثر من أربعة آلاف سنة .

ولما استقر الآريون في أفغانستان . تحوّلوا بمرور الأيام من حياة الرعي والانتقال إلى حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة وبناء القرى وتعميرها ، إلى أن تَمَّ لهم بناء مدينة (بَلْخ) التي عرفها العرب باسم : (أم البلاد) والتي تقع في مقاطعة : (مزار شريف) شمالي أفغانستان .



ويروي التاريخ أن الآريين الذين شيدوا (بلخ) ، كانوا أوّل مَن سنّ القوانين وأقام الدساتير ووضع القواعد والأسس السليمة للحضارة البشرية ، ففي الوقت الذي وصلت فيه مصر إلى قمّة مجدها ، كانت (آريانا) تضع الأسس الأولى للحضارة العالمية ، وكان الأمن والنظام قد وصلا فيها إلى أعلى مستوى حضاري ولما تكاثر سكان (آريانا) وضاقت بهم الأرض ، هاجر قسم من القبائل الآرية متّجهة نحو الهند وغرباً نحو (فارس) ووصل قسم منها إلى أوروبا ، وقد نقلوا معهم الحضارة إلى البلاد

التي هاجروا إليها .

وعندما نطالع (القيداس) الأربعة ، وهي الكتب المقدسة القديمة عند الهندوكيين ، نرى أنها تحكي وتشرح حياة الآريين في (بلخ) عاصمة (آريانا) ، ومن هذا يتضح أن العقيدة الهندوكية نشأت أولاً في أفغانستان ، ثم هاجرت إلى الهند وشاعت فيها .

وبعد ذلك ولد (زرادشت) في (بَلْخ) صاحب (أفيستا) الذي أسس المذهب (المثنوي) بعقيدة الخير والشر .

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد ، غزا الاسكندر المقدوني أفغانستان وأقام مدينتي (قُندهار) و (هراة) ، واستمر حكم اليونان بعده ما يقرب من مائتي سنة .

ولما جاء الاسكندر المقدوني إلى أفغانستان ، كان معه (كلسنانس) الفيلسوف المؤرخ ابن أخت الفيلسوف (أرسطو) ، فتأسست المدرسة اليونانية في أفغانستان ، واتحد الفكر والفن البوذي ، كما تحول الفن والفكر أيضاً

إلى ما يسمى (إغريقو بوذيك) أي اليوناني البوذي ، وقد استمرت هذه المدرسة في أفغـانستان عـدّة قرون وتـركت فيها آثاراً باقية .

وفي القرن الأول قبل الميلاد ، تدفقت جمـوع من قبيلة (كـوشان) إلى أفغـانستان من منـطقة (تـركستـان) الشرقية ، فقـامت الأمبراطـورية الكـوشانيّـة التي كان من أشهـر حكامهـا (كانشكـا) الذي حكم في القـرن الثاني الميلادي .

وكـان قد ظهـر (بـوذا) في الهنـد وأسس مـذهبـه ومدرسته هناك ، إلا أن هذه المدرسة لم تنتشـر تعاليمهـا ولم يكن لها شأن ونفوذ وصدى ، إلا بعـد ما شـاعت في أفغانستان واعتنقهـا ملوك الكوشـانيين العظمـاء ، فارتفـع شـأنها وذاع صيتهـا في البلاد المجـاورة، حتى في الهند ذاتها .

وعنـدما قـويت الدولـة السـاسـانيـة ، تقلّصت قـوة الكـوشان ، وتتـابعت إمـارات محليـة صغيـرة بيـد أمـراء يحكمون البلاد باسم السّاسانيين .

واستمـرت هـذه الإمـارات المسيطر عليهـا من الساسانيين في الحكم ، حتى قدم المسلمون فاتحين .

وكـانت أفغـانستـان في عهـد السـاسـانيين تعـرف باسم : (خُراسان) ، ومعنى خُراسان : أرض الشمس .

أمـا أيام السـاسانيين : قيـام الدولـة السـاسـانيـة ، وتنـظيم دولتهم ، والإدارة المركـزية التي تشمـل الـوزارة ورجـال الدين والقضـايـا المـاليـة ، والصنـاعـة والتجـارة والمـواصلات والجيش والكتّـاب وموظفي الـدولـة وإدارة الأقـاليم . والـزردشتيـة التي هي دين الـدولـة والشعب ، فتجـدها في مقـدمة كتـابنا : قـادة فتح بـلاد فـارس[1] ، فليرجع إليهامن شاء التعمق في تاريخ تلك الدولة في أيام ظهـور الإسلام وفي عهـد الفتح الإسـلامي ، فقد كـانت أفغانستان قسماً من أقسام الدولة الساسانية .

وعندما اعتنق الأفغانيون الإسلام ، حطّموا الأصنام والأوثان ، وتمسكوا بالدين الحنيف ، وأخذوا ينشرونه في أرجـاء أفغانستـان والهند ومـا وراء النهر ، وحملوا مشعله

---

(١) قادة فتح بلاد فارس (١١ ـ ٨٠) .



شرقاً وغرباً ، فأصبحوا من أخلص دعاة الإسلام ، وكـان لهم تـاريخ مجيـد في نشر الإسـلام وبخـاصـة في الهنـد وإيران وفيما وراء النهر .

لقد أثر الإسلام في الأفغان تأثيراً عميقاً . فأصبحوا من المتمسكين بـالإسلام وتعـاليمه ولا يـزالون ، فكـانت أفغـانستـان من حصـون الإسـلام القـويـة في مـاضيهـا وحاضرها ، وستبقى كذلك في مستقبلها بإذن الله[1] .

طبيعة أفغانستان

١ ـ الموقع :

تقع أفغانستان في قلب آسيا في منطقة بعيدة عن البحار ، تمتـد على رقعـة واسعـة من الأرض تبلغ مسـاحتـهـا (٦٥٠,٠٠٠) كيلو متر مربـع ، تشكل السفـوح الغربيّـة لتلك الجبـال الشامخة التي تشغل وسط آسيـا ، فيتكـون معظم سطحها من مرتفعات ، خلا بعض المساحات التي

(١) أنظر كتاب أفغـانستان (١٦ ـ ١٨) وكتـاب أفغانستـان (مـواطن الشعوب الإسلامية في آسيا) (٣٣ ـ ٣٥) وكتـاب هرات (تـاريخها وآثارها ورجالها (ص ٩) .

تشمل قسماً من المناط الغربية في الشمال الغربي والجنوب الغربي .

وتشكل أفغانستان القسم الشرقي من هضبة (إيران) . وتغلب الصفة الجبلية على سطحها ، ويكون الميل العام من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .

وتبدأ المرتفعات في الشمال الشرقي بهضبة (بامير) التي تشكل عقدة تتفرّع منها السلاسل الجبلية الشامخة ، ويبلغ متوسِّط ارتفاعها (٣٠٠٠ م ـ ٣٦٠٠ م) ، ولكنها تصل في بعض قممها إلى (٦٠٥٤ م) داخل أفغانستان ، وتشكل مناطق الحدود بينها وبين تركستان وكشمير وباكستان والتيبت ، وتغطي الثلوج قممها معظم أيام السنة .

٢ ـ الجبال :

(أ) جبال هندكوش : تمتد باتجاه الجنوب الغربي لتشغل أكثرية أرض أفغانستان ، حيث تصل إلى مقربة حدود (إيران) ويستمر هذا الامتداد على طول (٥٧٥ كم) ، وتكون مرتفعة في الشرق إذ يصل ارتفاعها إلى

(٥٣٣٤ م) ، بينمـا تنخفض في الغـرب فـلا يـزيـد ارتفـاعهـا عن (٣٠٠٠ م) . وتنسـاب الأنهـار منهـا في جميـع الإتجاهـات على شكل أوديـة وشعـاب ، حتى أن كلمة : (هندكوش) تعني جبال الأنهار وقد جزّأتها هـذه السيول إلى عدة سلاسل ، يطلق عليها أسماء مختلفة .

ب ـ جبـال سليمـان : تتفـرع من هضبـة (بـاميـر) وتتجه جنوباً ، وتشكل الحدود بين أفغانستان وباكستان ، وتتألف من سلاسل متقاربة تخترقها أودية عديقة ، ويصل أعلى ارتفـاع لهـا إلى (٤٧٦١ م) في قمـة (سيكـرام) على الحـدود بين الـدولتين في جنـوبي شـرقي مـدينة (كابُل) ، ومن أشهر ممراتها : ممر (خَيْبَـر) الذي يمـر فيـه نهـر (كـابُـل) ويصـل بين مـدينتي (كـابُـل) في أفغانستان و (بيشاور) في باكستان .

٣ ـ السهول :

تمتـد السهول شمـالاً في مناطق ضيقـة قـريبـة من مجـرى نهـر (جيحـون) الـذي يشكـل الحـدود بين تركستان وأفغانستان ، ولا يزيد ارتفـاعها عن (٣٠٠ م)

وتؤ ول إليها المياه المنحدرة من جبال (هندكوش) ويصل بعضها إلى نهر (سيحون) . بينما يغيض أكثرها في رمال المنطقة .

وتوجد أيضاً سهول في الغرب حول مدينة (هَراة) وعلى مجرى نهر (هاري رد) في مجراه الأوسط ، كما توجد سهول في الجنوب الغربي قليلة الارتفاع وأكثرها انخفاضاً على حدود إيران حيث تنتشر المستنقعات ، وتعتبر هذه الأقسام صحارى سوى ما كان منها على مجرى نهر (هلمند) .

٤ ـ المناخ :

تقع أفغانستان ضمن المنطقة المعتدلة ، سوى أجزاء صغيرة تقع ضمن الصحارى الحارة ولما كانت أفغانستان منطقة داخلية بعيدة عن البحار والمحيطات ، لذا فمناخها قاري شديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاءً ، وإن كانت الحرارة تختلف بين المرتفعات والمناطق المنخفضة ، حيث تعتدل الحرارة صيفاً في الجبال ، فتكون هضابها ومرتفعاتها مصايف جميلة ، أما

في الشتاء فشديدة البرد ، وكثيراً ما تنخفض درجات الحرارة إلى (٢٠°) درجة مئوية دون الصفر وتكون مكلّلة بالثلوج . أما المناطق المنخفضة فصيفها حار لاهب تزيد درجة الحرارة فيه على (٤٥°) درجة مئوية ، وينام الناس على أسطحة المنازل طلباً للنسمات العليلة المعتدلة التي هي نسيم الجبال ، تخلصاً من الحر الشديد والجو الخانق داخل البيوت . وأكثر المناطق حرارة هي المناطق الجنوبية الغربية ، وفي الشتاء يعمّ الاعتدال ، وتهبط في هذا الفصل القبائل من الجبال .

وتهبّ الرياح الموسمية على جبال (سليمان) في الصيف لا تتعدّاها ، وتحمل معها الأمطار ، أما بقية المناطق فتهبّ عليها الرياح الشمالية الشرقية الجافة التي تأتي من مناطق قاريّة .

وفي الشتاء تصل إلى البلاد الرياح الغربيّة التي تحمل بعض الرطوبة من البحر الابيض المتوسط رغم بعده ، فتسبّب هطول بعض الأمطار ، وتتساقط في المرتفعات على شكل ثلوج بسبب شدة البرد ، كما تتعرض الأجزاء الشمالية من البلاد للرياح الباردة الشديدة

البرد ، فتسبب تلك اللفحات القارصة وتنشر الصَّقيع .

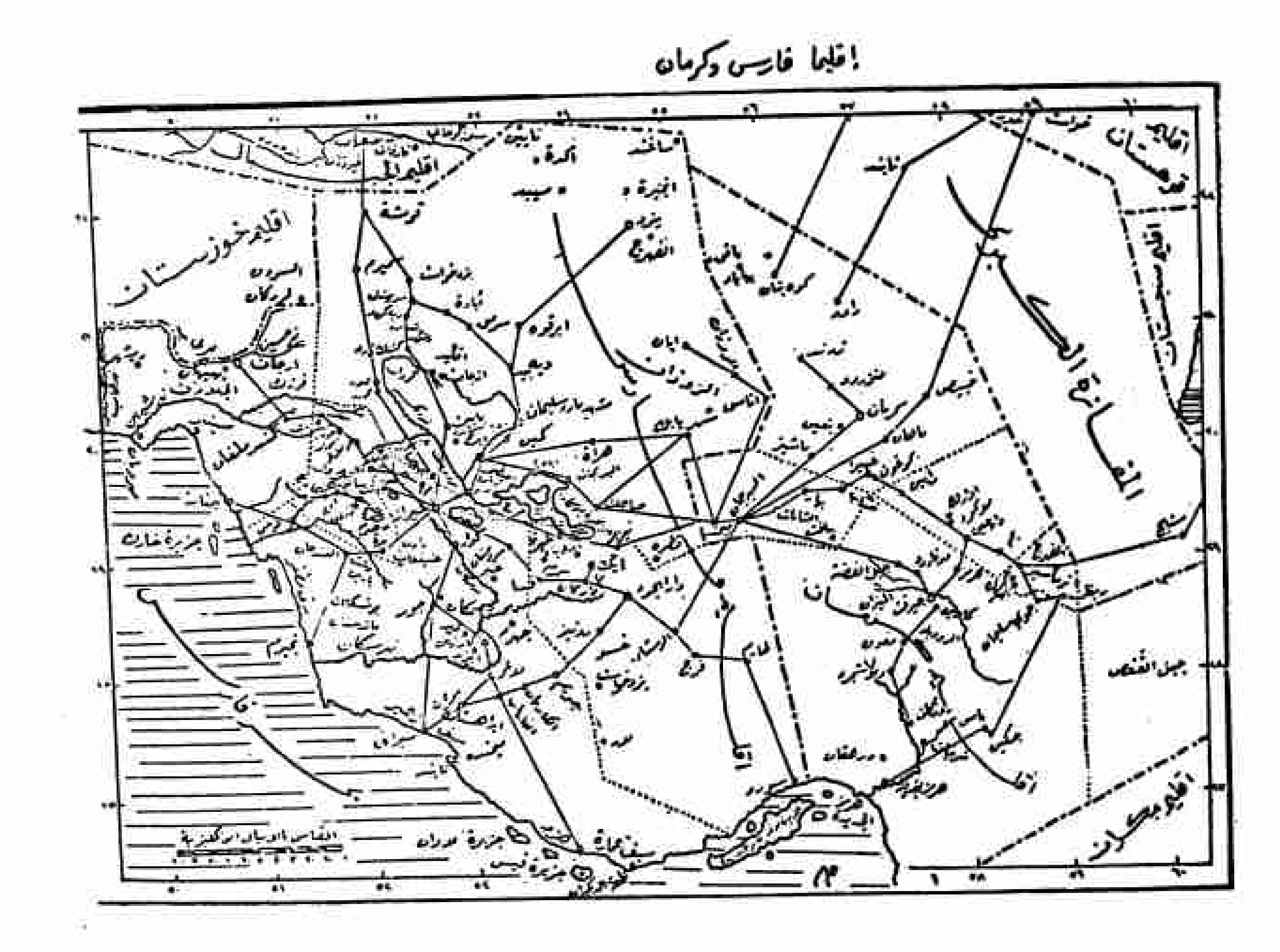
وأفغانستان بسبب بعدها عن البحار ، فهي قليلة الأمطار ، وأكثرها ما يهطل على المرتفعات في الشرق والشمال الشرقي ، حيث تبلغ الكميّات الهاطلة من الأمطار هناك (٣٨٠ مم) في السنة . وأقلّ المناطق مطراً هي المناطق الواقعة في الجنوب الغربي ، ويبلغ ما يهطل عليها من مطر (٥٠ مم) فقط في السنة . والمعدّل العام للمطر هو (٢٥٠ مم) في السنة ، ولكن هذه الكمية تتفاوت من سنة إلى أخرى .

وتتميز سماء أفغانستان بالصحو في معظم أيام السنة ، فالصيف دائم الصحو ، وأكثر أيام الشتاء صافية السماء وأقلها غائمة ، وتسطع الشمس الدافئة في أغلب الأحيان .

٥ ـ المياه :

الأنهار في أفغانستان قليلة ، وبخاصة الأنهار الدائمة الجريان ، بسبب قلّة الأمطار ، والأنهار الجارية ضئيلة المياه ، تجري في بطون الوديان على شكل خيوط

اقليما فارس وكرمان



من الماء سببها ذوبان الثلوج الدائمة . ولكن عدد الأودية كثير ، معظمها يجف أغلب أيام السنة لقلة المطر . وهي تمتلىء بالمياه إثر زخّات المطر ، وتفيض في فصل الربيع وأوائل فصل الصيف لذوبان الثلوج بسبب ارتفاع درجات الحرارة ، وتشح فيما عدا ذلك لشدة الحرارة التي تؤدي إلى زيادة التبخّر وقلّة التغذية والإستفادة ببعض ما يجري فيها للري .

ومن أهم هذه الأنهار :

(أ) جيحون : ينبع من هضبة (بامير) ويجري في الشمال ، ويشكّل الحدود بين أفغانستان وتركستان مسافة (٦٣٠ كم) ، ويتلقى تغذيته من ثلوج (بامير) والجبال المشرفة على واديه سواء من جبال (هندكوش) من الجنوب أم مرتفعات تركستان من الشمال ، ويصبّ في بحيرة (خوارزم) مشكّلاً جزيرة واسعة (دلتا) ، وكان فيما مضى يصب في بحر الخزر (قزوين) ، ويبلغ طوله (٢٢٤٠ كم) ، ويفيض في أيام الربيع .

ومن الجدير بالذكر ، أنّ البلاد الواقعة وراءه أطلق

عليها المسلمون إسم : بلاد ما وراء النهر ، نسبة إليه .

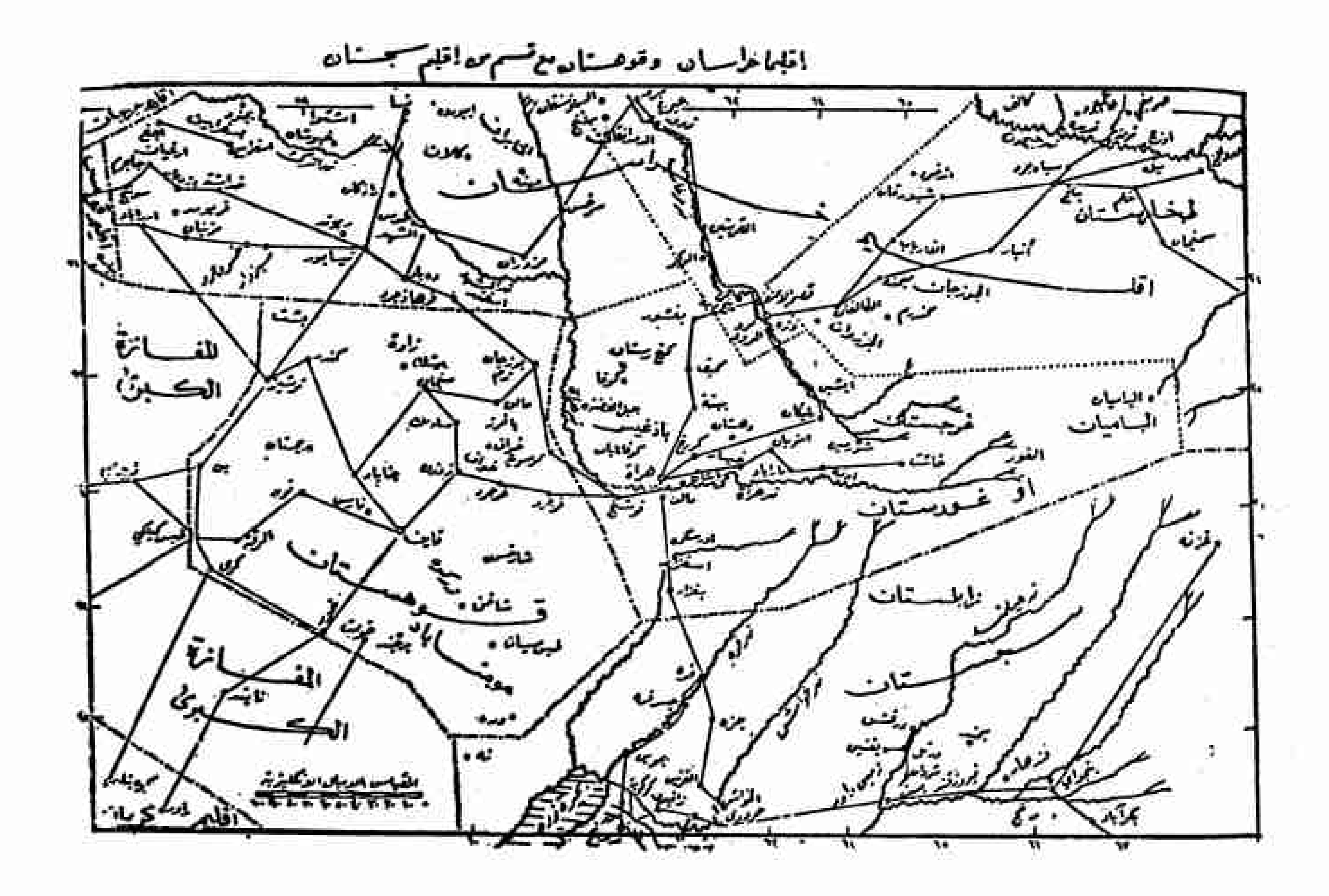
ومن المدن المشهورة التي تقع على هذا النهر مدينة (تِرْمِذ) ، وهي على حدود أفغانستان ضمن جمهورية الأزبك الخاضعة اليوم للسيطرة الروسية .

(ب) **نهر هلمند**: يبدأ مجراه الأعلى من المرتفعات الوسطى من جبال (كوه بابا) من غربي مدينة (كابُل) ، كما تتدفّق إليه المياه التي تنساب من الجبال الجنوبية لجبال (هندكوش) والسفوح الغربيّة للمرتفعات الشرقية عبر روافد كثيرة وأودية عديدة . واتجاه النهر نحو الجنوب الغربي ثم نحو الغرب ، وأخيراً يتّجه نحو الشمال ليصب في بحيرة (سيستان) على الحدود الأفغانية ـ الإيرانية .

ويبلغ طوله (١١٢٠ كم) ، ويروي وفروعه منطقة تزيد مساحتها على ثلث المساحة العامة لأفغانستان ، وتقع في الجنوب الغربي من البلاد .

(ج) **نهر خاش** : تنحدر مياهه من جبال(تيماني) ويتجه نحو الجنوب الغربي ، ويصب ما يفيض من مياهه في منخفض (سيستان) .

اقليم خراسان وقوهستان مع قسم من اقليم سجستان



(د) **نهـر فرح** : تنحدر مياهـه من جبال (تيماني) ويمر بمدينة (فرح) ، ويصبح بعدها جافاً ، ولا تجـري المياه في واديـه إلا بعد زخّـات المطر الشـديـد ، ويبلغ طـولـه (٦٤٠ كم) ، ويصب في منخفض (سيستان) .

(هـ) **نهر هاروت** : يجـري في الغرب ، ويصب في منخفض (سيستان) .

(و) **نهر هاري** : يجري في الغرب ، ويمتـد إلى أواسط البلاد ، وتقع في حوضه مدينة (هـراة) ، ويستمر في اتجاهه الغـربي حتى يصل إلى حـدود (إيران) ، ثم بين (تـركستان) و (إيـران) ، وأخيراً تغيض ميـاهـه في رمال (تركستان) .

ومن المـدن الـواقعـة على هـذا النهـر مـدينـة (سرخس) عند انعطاف الحدود الإيـرانية نحـو الغرب ، وتقع ضمن (تركستان) .

ويصـل طول هـذا النهر إلى (١٠٠٠ كم) تقـريبـاً منهـا في (أفغـانستــان) نحـو (٦٥٠ كم) والبـاقي في (تركستان) ، وقد اندثرت إسماً ، حيث لم يطلق اسمها على ما بُني على أنقاضها .

(ز) **نهـر مـورغـاب** : ينبـع من شمـالي جبـال (هنـدكوش) ومن أواسط البـلاد ، ويتجه نحـو الغرب ، وتقع عليه مدينة (مرو) عاصمة (خُراسان) .

(ح) **نهـر كابُـل** : ينبع من وسط البـلاد ، ويتجـه شـرقاً ، فيمـر بمدينـة (كابُـل) ، ويجتاز ممـر (خيبـر) ويدخل (باكستان) ، فيمر بمدينـة (بيشاور) ، وبعـدها يرفد نهر (السند) عند مدينة (أوتوك) .

يبلغ طـولـه نحـو (٦٠٠ كم) ، ويعتبـر من أهم الأنهـار الأفغـانيـة ، لفـوائـده الكبـرى ولاستمـرار تـدفّق مياهه .

السكان

١ ـ البوشتن Pushtuns :

يُشكلون ٦٠٪ من مجمـوع السكّـان ، وهم خليط من العنـاصر التـركية والإيـرانية ويجتمعـون في المنـاطق الواقعة جنوبي جبال (هنـدكوش) ، كمـا يتواجـدون في المناطق الواقعة شماليهـا ، وهم يعملون في الزراعـة كما

يمتهنون الرعي ، ويتميزون بالقامة الطويلة ولون البشرة الأسمر والشعر الأسود المتموًج ، وقد اعتادوا تحمل المشاق بسبب طبيعة بلادهم ووعورة جبالها . وتقيم بعض قبائلهم في باكستان ، وقد فصلت الحدود الاصطناعية بين أفغانستان وباكستان هذه القبائل بعضها عن بعض فجزًأتها ، ويعرفون في باكستان باسم : قبائل (الباتان) .

ومن أشهر فروع (البوشتن) في أفغانستان : (الغلزة) وهم من فرع الجنوب ، وبسبب ميل لون هؤلاء إلى البياض ، فقد ظن بعضهم أنهم مجموعة خاصة تختلف عن (البوشتن) .

٢ ـ الطاجيك :

وهم عناصر إيرانية ، يتميزون بالقامة المتوسطة ، ويسكنون الوديان العليا من إقليم (باداخشان) وفي السهول العليا في وسط البلاد حتى الغرب ، حيث يعمرون السهول الغربية حول مدينة (هراة) ، ويشكلون ٣٠ ٪ من السكان ، ويعملون في الزراعة والصناعة والتجارة .

٣ ـ الأتراك :

وهم امتداد لسكّان تركستان الغربية ، حيث نجد الأوزبك الذين يشكلون ٥ ٪ من مجموع سكّان أفغانستان ، والتركمان وهم يقيمون على الضفة الجنوبية لنهر جيحون ، والقرغيز الذين ينتقلون في هضبة (بامير) ويرعون الأغنام والماعز وحيوانات الياك . وبالقرب من هذه القبائل يقيم (القوزاق) أيضاً ، وهم من هذه المجموعة من القبائل .

٤ ـ الهزارة :

وقد انحدروا من أصل مغولي ، وعددهم قليل نسبياً ، وموطنهم المرتفعات الوسطى ، ويعملون في الرعي والزراعة .

٥ ـ البالوخ :

وهم في الجنوب ، والقليل منهم يقيمون في أفغانستان ، وأكثرهم يقيم في إقليم (بلوخستان) من باكستان ، وهو أقليم مجاور لأفغانستان ، ويطلق عليهم : البالوج أو البالوش .

المدن

١ ـ كابل :

تقع على النهر المسمى باسمها : (نهـر كابـل) ، وهي قسمـان : القسم الشرقي وهـو المدينـة القـديمـة ، والقسم الغربي وهو المدينة الحديثة .

٢ ـ هراة :

تقع على نهر (هريرود)، ولعل إسمها مشتق منه، وتقع في المنطقة الغربية حيث تنتشر السهول.

وهي مـدينـة أثـريـة قـديمـة ، من أمهـات مـدن (خُراسان) ، تبعد عن (كابل) بنحو (١٠٤٢كم)وتـرتفع عن سـطح البحـر بنحـو (١٩٢٠ م) ، يصلهـا بقنـدهـار وسِجِسْتـانْ وكـابُـل طـريق معبّـد ، وتتصـل من الجهـة الشمالية بباذغيس ومرو الروذ وجوزجان .

٣ ـ قندهار :

تقع على مجرى أحد فروع نهر (هلمند) قريبة من الحدود الباكستانية .

٤ ـ مزار شريف :

مـدينة قـديمة من الشمـال ، وهي مـركـز مقـاطعـة (بلخ) .

٥ ـ بلخ :

مـدينة تـاريخية قـديمـة ، كـانت عـاصمـة مملكـة (ايريانا) القديمـة ، وكانت تحمـل إسم : (باكتـريا) ، وتقع إلى الغرب من مدينة (مزار شريف) . وعلى مسافة مائة كيلومتر منها تقريباً .

٦ ـ غزنة :

مدينة تـاريخية قـديمة ، تقـع جنوبي غـربي مدينـة (كابُل) على بُعد مائة وخمسين كيلومتر منها ، وهي على طريق المواصلات بين (كابُل) و (قندهار) .

٧ ـ طالقان :

بلدتـان ، إحداهمـا بخرسـان بين (مرو الـروذ) و (بلخ) ، بينهـا وبين (مرو الـروذ) . ثـلاث مـراحـل ،

وهي أكبر مدينة بطخارستان ، ويقال لها : (طـالقان مـرو الروذ) . والأخرى بلدة وكـورة بين قزوين وأنهـر ، ويقال لها : (طالقان قزوين) .

٨ ـ فارياب :

مـدينة مشهـورة بخُراسـان من أعمال (جـوزجان) قرب (بلخ) غربي (جيحـون) ، وتعرف اليـوم مقاطعـة بهـذا الاسم ، ومركـزها مـدينة (ميمنـة) ، وهي (ميمنة جوزجان) .

٩ ـ جوزجان :

إسم كورة واسعة من كور (بلخ) بخُراسـان ، بين (مرو الروذ) و (بلخ) ومن مدنها (فارياب) .

وتوجد اليوم مقاطعة تحمل هـذا الاسم إلى الشرق من مقاطعة (فارياب) .

١٠ ـ مرو :

مـدينة قـديمة ، وهمـا مدينتـان : الأولى بـاسـم : (مــرو الشـاهجـان) وهي مـرو العــظمى أشهـر مــدن (خُـراسان) وقصبتهـا ، وهي الآن في خرسـان التي تقع في الاتحاد السوفياتي . أما مرو الثانية فهي (مرو الروذ)

وهي مدينة صغيرة بالنسبة إلى (مرو الشاهجان) وقريبة منها ، بينهما خمسة أيام ، وتقع على نهر (مورغاب) في حدود أفغانستان وداخلها على حدود تركستان .

وتقدر المسافة بين هاتين المدينتين بنحو مائتين وخمسين كيلومتر .

١١ ـ طخارستان :

هي المنطقة الأفغانية التي تقع شرقي مدينة (بلخ) ، وهي بلاد جبلية .

فتح أفغانستان

١ ـ المعركة الحاسمة :

خاض المسلمون معركة (نَهاوند) بقيادة نُعمان بن مُقَرِّن المُزَنِي رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) ، وهي إحدى المعارك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة وبين الإمبراطورية الساسانية من جهة أخرى ففتحت هذه المعركة الحاسمة للمسلمين أبواب فارس والمشرق

الإسلامي ومنها أفغانستان ، لذلك أطلق المسلمون على هذه المعركة بحق إسم : فتح الفتوح .

وبدأت بعد هذه المعركة الحاسمة معارك : استثمار الفوز ، وهي معارك محلية قاتل فيها قسم من جيوش المسلمين جيوش الحكّام المحليين ، فعقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيده سبعة ألوية لسبعة قادة ، عهد إليهم بالانسياح في المناطق الخاضعة للحكم الساساني والتي تحكم باسم حكّام فارس .

وكان من بين هذه الجيوش جيشان اتّجها نحو المنطقة التي تسمى اليوم : أفغانستان الأول بقيادة الأحنف بن قيس التميمي[1] ووجهته (خرسان) ، والثاني بقيادة عاصم بن عمرو التميمي[2] ووجهته (سِجِستان) .

٢ ـ فتح الأحنف :

تقع (خُراسان) بين هضبة (إيران) وسفوح جبال

---

(١) أنظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢١٧ ـ ٢٤٦) .

(٢) أنظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٧٩ ـ ٢٨٩) .

(هندكوش) وتلال بلاد (ما وراء النهر) ، وهي اليوم ضمن ثلاث دول : أفغانستان ومن مدنها (هراة) و (بَلْخ) ، وإيران ومن مدنها (نيسابور) ، وتركستان التي تخضع اليوم للسيطرة الروسية ومن مدنها (مرو الشاهجان) حاضرة (خراسان) كلِّها في أيام الأحنف .

وقد شهد الأحنف قبل أن يتوجه لفتح (خُراسان) فتح (نَهاوند) مع أهل البصرة الذين جاؤوا مدداً وعليهم أبو موسى الأشعري[1] ، فلما انصرف أبو موسى من (نهاوند) وفتح (قُم) وجّه الأحنف إلى (قاشان) ، ففتحها عنوة ثم لحق بأبي موسى الأشعري .

وبعد أن أنجز الأحنف متطلبات قوّاته القتالية كافة وأكمل حشدها ، سار لفتح (خُراسان) سنة ثماني عشرة الهجرية (٦٣٩ م) ، وفي قول : سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) .

وسار الأحنف على رأس جيشه حتى دخل

---

(١) أنظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (١٧٨ - ١٩١) .

(خُـرسان) من (الـطَّبَسين)[1] فافتتـح (هراة) عنـوة واستخلف عليها .

وسار نحو (مرو الشاهجـان) ، وكتب (يزدجـرد) وهو في (مرو الـروذ) إلى خاقـان ملك الترك وإلى ملك (الصُّغْد) وإلى ملك (الصين) يستمدّهم .

وخرج الأحنف من (مرو الشاهجان) بعـد أن وصلته إمـدادات (الكوفـة) ، فسار نحـو (مرو الـروذ) ، وقدّم أهـل (الكـوفـة) إلى (بلخ) وأتبعهم الأحنف ، فـالتقى أهـل الكوفـة بيـزدجـرد في (بلخ) فهـزمـوه ، فمـا لحق الأحنف بأهل الكوفة إلا وقد فتح الله عليهم .

وتتـابع أهـل (خُراسان) ممن شـذّ أو تحصن على الصلح فيمـا بين (نيسابـور) إلى (طخارستـان)[2] ممن

---

(١) طبس : مـدينة في بـرية بـين نيسـابـور وأصبهـان وكـرمـان ، وهمـا طبسـان : طبس كيلكي وطبس مسينان ، ويقـال لهما : الـطبسـان ، أنـظر التفـاصيـل في معجم البلدان (٦/٢٨) وآثـار البـلاد وأخبـار العباد (٤٠٦) .

(٢) طخـارستان : المنـطقة الأفغـانية التي تقـع شرقي مـدينة (بلخ) ، وهي بلاد جبلية .

كان في مملكة كسرى . أما الأحنف ، فعاد إلى (مرو الرّوذ) فنزلها ، واستخلف على (طخارستان) .

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح (خراسان) ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق المسّمى بغير اسمه » ولكن عمر قال : « لَوَدِدْت أني لم أكن بعثت إلى (خُراسان) جنداً ، ولَوَددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » وخشي عمر أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء (خراسان) من أرض المشرق ، كما خشي أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فيتغلغلوا شرقاً ، فكتب إلى الأحنف يقول : « أما بعد ! فلا تجوزنَّ النهر واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيءٍ دخلتم على (خُراسان) ، فداوموا على الذي دخلتم به يَدُم لكمْ النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

لقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يُسَوِّغه ، فقد اتّسعت رقعة الفتح في المشرق ، فشملت أرض أرض فارس كلّها ، وقد طالت خطوط المواصلات كثيراً ، وتوزعت قوات المسلمين في أرجاء الشام ومصر والعراق وفارس ، وقد دلّت الحوادث من بعد ، أنّ عمر

كان حصيف الرأي بعيد النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى (بلخ) ، واضطروا جند الكوفة أن يتراجعوا منها إلى (مرو الروذ) . وكان الأحنف قد خرج بقوّاته ليلاً من المدينة وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناس وقال لهم : « إنكم قليل ، وإن عدوّكم كثير ، فلا يهولنّكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه ، واللّه مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم ، وقاتلوهم من وجه واحد » ، وكانت قوات الأحنف تقدّر بعشرين ألفاً : عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وعشرة آلاف من أهل البصرة .

وأقبل الترك ، فكانوا يناوشون المسلمين نهاراً ويتنحون عنهم ليلاً ، فخرج الأحنف بنفسه طليعة لأصحابه ، حتى كان قريباً من معسكر خاقان الترك ، فلما تنفّس الصبح ، خرج فارس من الترك بطوقه ، وضرب بطبله ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إن علـى كـلِّ رئـيس حـقـاً
أن يـخـضـب الصَّـعدة أو يـنْـدَقـا
إن لـنـا شـيـخـاً بـهـا مُـلقـى
سـيـف أبـي حفص الـذي تَـبَـقَّـى[1]

وخـرج فارس تـركي ثـان ، فـأورده الأحنف حتفـه بطعنة نجلاء ، وهو يرتجز :

إن الـرئـيس يَـرْتـبـي ويـطلع
ويـمـنـع الـخُـلاَّء أمـا أربعـوا[2]

وخـرج فارس تـركي ثالث ، فـأورده الأحنف مورد صاحبيه وهو يرتجز :

جـرْيَ الـشّـمـوس نـاجـزاً بـنـاجِـزِ
مـحـتـفـلاً بـجـريـه مـشـارزِ[3]

---

(١) الصعدة : الرمح ، أو آلة جارحة أصغر من الحربة . ملقى : طريح ، ويقصد به الشهيد .

(٢) يرتبي يصعد الرابية . الخلاء : جمع خلي ، وتميم تقول : خلا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئاً ولا خلط به . ربع بالمكان : أقام .

(٣) الشموس : الفرس تمنع ظهرها . مشارز : الشدة والصعوبة والقوة .

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ، لأن مقامهم طال دون جدوى ، ولأنهم تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح ، ولأن أملهم بالنصر كان ضعيفاً ، ولأنهم اطمأنوا إلى أن المسلمين لن يعبروا إليهم النهر تنفيذاً لأمر الخليفة عمر بن الخطّاب .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة عن (بَلْخ) وانضموا إلى الأحنف بـ (مرو الرّوذ) ، قد فصل بقوة فارسيّة من (بلخ) إلى (مرو الشاهجان) ، فحصر المسلمون بها واستخرج خزائنه من موضعها .

وعلم يزدجرد بانسحاب خاقان إلى (بلخ) وعزمه على الإنسحاب من فارس كلِّها إلى بلاده ، فأراد أن يحمل خزائنه ويلحق بخاقان حليفه ، فقال له أهل فارس : أي شيءٍ تريد أن تصنع ؟ ! فقال : «أُريد اللّحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين ! » ، فقالوا : مهلاً ! إن هذا رأي سوء ، فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا ، وإنّ عدواً

يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدوٍ يلينا في بلاده ، ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤ هم ! ! فأبى عليهم وأبوا عليه ، فقالوا : فدع خزائننا نردّها إلى بلادنا ومَن يلينا ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها ! فخالفهم يزدجرد وأصرّ على رأيه ، فخرجوا إليه وثاروا به وقاتلوه وحاشيته واستولوا على خزائنه ، ففرّ فيمن معه إلى (بلخ) ، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ (فَرْغانة) عاصمة الترك ، فقال المسلمون للأحنف : ما ترى في اتِّباعهم ؟ فقال : « أقيموا بمكانكم ودعوهم » . . .

وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهدوه ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجند الكوفة من (مرو الرّوذ) إلى (بلخ) فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته في (مرو الرّوذ) .

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس ، فجمع عمر الناس وخطبهم ، وأمر بكتاب الفتح فقرىء عليهم ، وقال في خطبته : « ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق

شملهم ،فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده ، ولا تتبدلوا ولا تتغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلكم » ، فكان فتح الأحنف لخراسان النذير الصّادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان ونشر رايات الإسلام في تلك البلاد[1] .

٣ ـ فتح عاصم :

بعد فتح (نهاوند) ، قرّر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يدفع قوّات المسلمين إلى سائر أنحاء فارس ، فعقد بنفسه سبعة ألوية لسبعة قادة عهد إليهم بالإنسياح في أرض فارس كلها كما ذكرنا ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواء (سَجستان) دفعه إلى عاصِم بن عمرو

(١) أنظر تفاصيل فتح الأحنف في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٢٠ ـ ٢٢٦) .

التميمي ، وأمره على رأس جيش من البصرة ، ثم أمدّه بأهل الكوفة بقيادة عبدالله بن عمير .

وسِجستان ولاية كبيرة واسعة تشمل اليوم : منطقتي (راجستان) و (سيستان) ومن مدنها (قُنْدهار) و (زَرَنج)[1] ، ويقع منها اليوم في إيران ، وهو غربي (سيستان) . وعسكر عاصم بالقرب من البصرة ، حتى أكمل حشد قواته وأنجز متطلباتها الإدارية ، ثم توجّه نحو هدفه (سِجستان) ، وهي أعظم من (خراسان) وأبعد فروجاً ، يقاتل أهلها القندهار والترك وأُمما كثيرة ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، وكلّ ذلك يدل على أهمية واجب عاصم ، وأنّ اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلاً على الثقة البالغة بقيادته .

والتقى عاصم بحُماة (سِجستان) على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى (زَرَنج) عاصمة ولاية (سجستان) ، فحاصرهم

---

(١) زرنج : مدينة لم يبق لها اليوم أثر ، تقع في منطقة (سيستان) على الحدود بين أفغانستان وإيران في بقعة المستنقعات ، كانت مركز الولاية .

المسلمون فيها وبثوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة كلِّها . ولما أيقن المحاصَرون أنّ طول الحصار يضرّ بمصالحهم ومصالح إقليمهم ولا يجديهم نفعاً ، طلبوا الصّلح على أن تكون مزارع (سجستان) حمىً لا يطؤها المسلمون ، وبذلك فُتحت ولاية (سِجستان) ودخلت ضمن البلاد الإسلامية [1] .

٤ - استعادة أفغانستان :

(أ) جهاد الأحنف بن قيس : نكث أهل فارس العهد بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فلما استعاد عبدالله بن عامِر فتح بعض أرضِ فارس في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، غزا (خُراسان) وعلى مقدمته الأحنف ، فأتى (الطَّبَسَيْن) وهما وهما حصنان وبابا (خُراسان) ، فصالحه أهلهما ، فسار إلى (قُهْستان) ، فلقيه أهلها ، فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فقدم عليها عبدالله بن عامر وصالح أهلها .

---

(١)أنظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٨٦) .

ووجّه عبدالله بن عامر الأحنف إلى (طخارستان) ، فأتى الموضع الذي يقال له : قصر الأحنف ، وهو حصن (مرو الرّوذ) ، فصالح أهله بعد حصارهم على ثلاثمائة ألف درهم .

ومضى الأحنف إلى (مرو الرّوذ) ، فصالح أهلها بعد قتال شديد . وسيّر الأحنف سرية إلى (بغ)[1] ، فاستولت على الرستاق وصالحت أهله .

وجمع للأحنف أهل (طخارستان) ، فاجتمع أهل (الجوزجان) و (الطالقان) و (الفارياب) ومن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفاً ، وجاءهم أهل (الصّغانيان) وهم من الجانب الشرقي من نهر (جيحون) ، فالتقوا بالمسلمين ، وجرى قتال شديد بين الطرفين ، فانهزم الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون وألحقوا بهم خسائر فادحة بالأرواح .

ولحق قسم من العدو (بالجوزجان) ، فوجّه إليهم

---

(١) بغ : ويقال لها : بغشور ، وهي بليدة بين (هراة) و (مرو الروذ) .

الأحنف الأقرع بن حابِس التّمِيمي في خيل ، وأوصى قومه بني تَميم بقوله : « يا بني تَمِيْم ! تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدأوا بجهاد بطُونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » ، فسارع الأقرع ولقي العدو (بالجوزجان) ، فكانت بالمسلمين جولة ، ثمّ عادوا فهزموا عدوّهم وفتحوا (الجوزجان) عنوة .

واستعاد الأحنف فتح (الطالقان) صلحاً ، وفتح (الفارياب) ، ثم سار إلى (بلخ) وهي مدينة (طخارستان) ، فصالحه أهلها أيضاً .

وسار إلى (خوارزم)[1] وهي على نهر (جيحون) ، فلم يقدر عليها ، فاستشار أصحابه ،

---

(١) خوارزم : إسم اقليم وهو منقطع عن (خراسان) وعن (وراء النهر) ، وتحيط به المفاوز من كل جانب ، وحدها متصل بحد (الغزية) فيما يلي الشمال والغرب ، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر ، وهي على جانبي نهر (جيحون) ، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون ، أنظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٦٨) ومعجم البلدان (٣/٤٧٤) .

فأشاروا عليه بالعودة إلى (بلخ) .

وهكذا استعاد الأحنف (خُراسان) ثانية ، وكان ذلك سنة ثلاث وثلاثين الهجرية (٦٥٣ م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[١] .

(ب) **الربيع بن زياد الحارثي** : نقض أهل (سِجستان) بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فلما توجّه عبدالله بن عامر إلى (خراسان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، سيّر إليها من (كرمان) الربيع بن زياد الحارثي ، فسار إليها حتى نزل (الفِهرج) التي تقع بين (فارس) و (أصبهان) ومعدودة من أعمال (فارس) ثم من أعمال كورة (إصطخر) ، ثم قطع المفازة وهي خمسة وسبعون فرسخاً ، فأتى رستاق (زالق) من نواحي (سجستان) ، فأغار على أهله في يوم (مهرجان) وهو عيد من أعياد الفرس ، وأسر دهقان (زالق) ، فافتدى نفسه ، فحقن الربيع دمه وصالحه على أن يكون بلده كبعض ما افتتح

---

(١) أنظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٢٦ - ٢٢٨) .

من بلاد (فارس) و (كرمان) .

ثم أتى الربيع قرية يقال لها : (كَرْكَويه) على خمسة أميال من (زالق) ، فصالحوه ولم يقاتلوه .

ونزل الربيع رستاقاً يقال له : (هيسون) وهو رستاق بين (زالق) و (زَرنج) ، فأقام له أهل النزلة وصالحوه على غير قتال .

وعاد الربيع إلى (زالق) ، وأخذ الأدلاء منها إلى (زَرَنْج) ، وسار حتى نزل (هِنْدمَنَد) وهو نهر مدينة (سِجستان) ، وعبر جيشه وادياً يتفرع منه يقال له : (نوق) ، وأتى (دوشت) وهي مدينة بينها وبين (زرنج) ثلثا ميل ، فخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالاً شديداً ، فأصيب رجال من المسلمين ، ولكن المسلمين كرّوا عليهم حتى اضطروهم إلى اللّجوء إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وسار الربيع إلى (ناشروذ) ناحية بسجستان ، فقاتل أهلها وظفر بهم ، ثم مضى منها إلى (شرواذ) في (سجستان) فغلب عليها وأصاب بها بعض السّبي .

وحاصر الربيع (زَرَنج) بعد أن قاتله أهلها ، فبعث إليه (أبرويز) مرزبانها يستأمنه ليصالحه ، فصالحه على ألف وصيف ، مع كل وصيف جام من ذهب ، فدخل المسلمون (زَرَنْج) .

وانتقل الربيع بعد ذلك إلى (سناروذ) وهو نهر (سِجستان) ، فعبره وأتى (قِرْنِيْن) وهي قرية من قرى (سجستان) ، فقاتله أهلها ، ولكنه ظفر بهم .

وعاد الربيع إلى (زرنج) ، فأقام بها سنتين ، ثم أتى عبدالله بن عامِر ، واستخلف بها رجلاً من بني الحارث بن كعب ، فأخرجه أهل (زرنج) وأغلقوها .

وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً ، وسبى في ولايته هذه أربعين ألف نسمة ، وكان كاتبه الحسن البصري رضي الله عنه .

ولما صار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، عزل عبد الرحمن بن سَمُرة عن (سجستان) وولّاها الربيع ، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١ م) ، فأظهره الله على الترك .

وبقي الـربيـع على (سجستـان) إلى أن مـات المُغيـرة بن شُعْبَة[1] وهـو أميـر على الكـوفـة وذلـك سنـة خمسين الهجرية (٦٧٠ م) ، فـولّى معاويـة زياد بن أبي سفيان الكوفة مع البصرة ، وجمع لهُ العِراقيْن .

وعزل زياد بن أبي سفيـان الربيعَ عن (سجستان) وبعثه إلى (خُراسان) أميراً سنة إحدى وخمسين الهجرية (٦٧١ م) ، وسيّـر معه خمسين ألفـاً بعيالاتهم من أهـل الكوفة والبصرة ، فأسكنهم دون النهر (نهر جيحون) في (خراسان) ، فلمـا قدمهـا غزا (بلخ) ففتحهـا صلحاً ، وكانت قد أغلقت أبوابها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس التميمي .

وفتـح (قُهْستـان) عنـوة ، وقتـل مَن بنـاحيتهـا من الأتراك ، فبقي منهم (نيزك طرخان) ملك التـرك ، فقَتَله قُتَيبَة بن مُسْلِم الباهِلِي في ولايته .

---

(١) أنظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١ - ٤٥٥) .

وهكـذا استطاع الـربيع استعـادة فتـح (سِجستـان) و (خراسان)[1] .

٥ ـ معارك الفتح ومعارك الإستعادة :

كـانت معركـة (نهـاونـد) بين المسلمين من جهـة والأمبراطورية الساسانية من جهة ، معركة حاسمة ، وكان من نتـائجهـا فتـح أبـواب المشـرق الإسـلامي للفـاتحين المسلمين ، فهي معـركة سَـوقية ، لأنهـا معركـة بين أكبر حشـد للدولـة الإسـلاميـة وأكبـر حشـد لـلإمبـراطـوريـة السـاسانيـة ، ولأن نتائجهـا أثّـرت في حـاضـر ومستقبـل الإمبراطوريـة الساسـانية في المنـاطق والبلاد التي كـانت تسيطر عليها ، وكان تأثيرها حاسماً لانهيار القّوة الضّـاربة للساسانيين .

وبعد معركة (نهاوند) الحاسمة ، توزّعت القـوّات الإسلامية التي قاتلت موحدة في هذه المعركة تحت لـواء واحد وبقيادة واحدة ، إلى سبعة ألوية بقيادة سبعة قـادة ،

---

(١) أنظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (١٦٦ ـ ١٦٨) .

لكل قائد من القادة السبعـة هدف محـدّد وواجب معين ، فخاض كل قائد معركة من معـارك استثمار الفـوز ، وهي معـارك تعبويّـة ، قاتلت القـوات المحلية بقيـادة حكامهـا المحليين فيهـا الفاتحين القـادمين من بعيد بقيـادة القـادة المرؤوسين في أغلب الأوقات .

وقـد لاقى الفاتحـون مقاومـة تعبويـة تغلّبـوا عليهـا بسهولة ويسر في أغلب الأوقات ، ولكن البلاد المفتوحـة نقضت واستعادت السيطرة على بلادها في الأوقـات التي شغل الفاتحون بالإضطرابات الداخلية والفتن المحليـة ، لا لأن قوّات البلاد المفتوحة أصبحت قويّة متفـوقة ، بـل لأن الفــاتحين تفـرّقت كلمتهم وأصبحت سيــوفهم على أنفسهم لا على أعدائهم .

وحين استطاع الفاتحون القضاء على الإضـطرابات والفتن الـداخليـة المحليـة ، استعـادوا البـلاد المفتـوحـة بسهولة ويسر أيضاً ، . بمعارك تعبوية هي معارك استثمار الفـوز ، دون أن أن يخوض المسلمـون معركـة حـاسمـة سَوْقِية أخرى .

ولكنّ معـارك الفتح لم تكن سهلة التكـاليف ، بـل

صادف المسلمون في كثير منها مقاومة شديدة ، وتكبّـدوا فيها خسائر فادحة بالأرواح ، وجـرى فتح بعض المنـاطق والمدن عنوة .

وكان لتلك المقاومة أسباب كثيـرة ، لعَل أهمهـا : منـاعة البـلاد الطبيعيـة كوعـورة الجبال وسعـة الصحارى وتعـددّ الأنهار ، ومنـاعة المـدن الإصطنـاعية ، كـالقـلاع والحصون والأسوار .

كمـا أنّ من الأسباب ، تفـوّق المقـاومين من أهـل البـلاد على الفاتحين عَـدَداً وعُـدَداً ، فقـد كـان قسم من حكام تلك المناطق يحتفظون بجيش قوي ، يدافعون بـه عن بلادهم حين يكون الأكاسرة أقوياء ، ويقـاومون جيش كِسـرى حين تضعف السلطة المركـزية ، فهم غـالبـا مـع كسرى القويّ وعلى كسرى الضعيف .

فلما انهارت السلطة المركزيـة بعد معـركة (نهـاوند) الحـاسمـة ، بقيت مقـاومـات السلطات المحليـة ، التي تتناسب تناسباً طردياً مع قوّة جيوش تلك السلطات ومناعة مناطقها الطبيعية والإصطناعية .

ومن تلك الأسباب ، الدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد : دفاع الحكّام عن سلطتهم ، ودفاع الحكّام والشعوب عن عقائدهم وتقاليدهم .

كما أنّ طول خطوط مواصلات المسلمين ، وتغلغلهم بعيداً عن قواعدهم الرئيسة وقواعدهم الأمامية والمتقدمة ، ساعد أعداءهم على مقاومتهم بشدة وعنف في بعض الأحيان .

والحق أنّ تغلغل المسلمين بالعمق بعيداً عن قواعدهم ، في بلاد بعيدة غاية البعد عن بلادهم ، وسط شعوب غريبة عنهم في لغاتها وعقائدها وتقاليدها ، يمكن اعتباره مغامرة من أخطر المغامرات في تاريخ الفتوح ، ومن الصعب تسويغُ تلك المغامرة إلا بتأثير العقيدة الإسلامية المنشئة البنّاءة في نفوس المسلمين وعقولهم معاً ، فاستسهلوا من أجلها كلّ صعب ، وتحملوا في سبيلها كلّ تضحية ، وتغلبوا بها على العقبات والأهوال .

وإلاّ ، فكيف نسوِّغ اندفاعهم الخطير وتغلغلهم العميق ، بقوات قليلة جداً بالنسبة لقوات أعدائهم ، لو

لم تكن العقيدة الراسخة هي التي يغامرون ويندفعون ويضحون بأرواحهم من أجلها وفي سبيلها ؟

لقد حمل الفاتحون الإسلام إلى الأمم بالفتح ، ولم يحملوهم عليه بالفتح .

ودخلت الأمم والشعوب في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً ، فأصبح للمغلوبين ما للفاتحين وعليهم ما عليهم .

وقد أدّى انتشار الإسلام في الأمم والشعوب التي فُتحت بلادها إلى تصاعد قوّة الفاتحين ، لأن المسلمين الجدد أصبحوا عوناً للفاتحين على أعدائهم ، ولكن بقي الفاتحون هم العمود الفقري في الدفاع عن البلاد المفتوحة وفي صيانة مكاسب الفتح ، فهم القوّة الضاربة الأصلية ، بينما أصبح المسلمون الجدد القوّة الفرعية المساعدة ، لذلك نقضت البلاد المفتوحة في حالات تفكّك أواصر الفاتحين الأصليين ، على الرغم من وجود المسلمين الجدد وثباتهم على الإسلام .

وانتشار الإسلام في المغلوبين ، يفسِّر لنا سهولة

عودة الفاتحين إلى البلاد التي سبق فتحها واستعادتها ثانية إلى حضيرة الدولة الإسلامية ، فقد كان استعادة تلك البلاد والمناطق بفضل انتشار الإسلام أسهل بكثير وأسرع من فتحها لأول مرة .

وحين بدّل الفاتحون ما بأنفسهم ، وتخلوا عن عقيدتهم الراسخة أو تهاونوا في تطبيقها ، بقيت البلاد المفتوحة إسلامية بفضل انتشار الإسلام في ربوعها ولا تزال تلك البلاد إسلامية حتى اليوم ، ذلك لأن الفتح الإسلامي كان فتح مبادىء لا فتح سيوف .

والقول بأن البلاد المفتوحة انهارت أمام الفاتحين المسلمين لضعف قوّاتها الضاربة ، يعوزه الدليل التاريخي والدليل الواقعي ، فقد فتح الإسكندر المقدوني تلك البلاد كما ذكرنا ، فأين هو فتحه ، وماذا أبقى من آثار ، وكم استمّر في تلك البلاد ؟

وفي الوقت الذي كان فتح الإسكندر سحابة صيف ، لأنه فتح قوّة وبطش ، بقي الفتح الإسلامي فتحاً مستداماً حتى اليوم ، وسيبقى واضح المعالم بارز الأثر ما

بقي التاريخ ، لأنه فتح مبادىء ، والمبادىء تبقى ، وغيرها يزول .

ومن الواضح أن المؤرخين ـ ومعظمهم من الأجانب وممن نقل عنهم من المسلمين دون تمحيص ـ يحاولون ما استطاعوا التقليل من أهمية انتصار المسلمين على الإمبراطورية الساسانية لا حبّاً بالفُرس ولكن كرهاً للعرب والإسلام ، فالعوامل التي قضت على الفرس ، بالهزيمة كائنة ما كانت ، ليست هي العوامل التي قضت للعرب بقيام الدولة وانتشار عقيدة ، لانّ استحقاق دولة للزوال لا ينشىء لغيرها حقّ الظهور والنصر والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفُرس لأنهم عرب وكفى ، فقد كان في بلاد الفرس عرب كثيرون يدينون لهم بالولاء والطّاعة ، وينظرون إليهم نظرة الإكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين وأمضى سلاحاً وأقرب إلى ساحات القتال من أولئك النازحين إليهم من الجزيرة العربية . وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين ،

وهم كـذلك أوفـر في العَـدَد والسِّـلاح ، وأغنى بـالخيـل والإبل والأموال .

بل إن الفئة القليلة من العرب المسلمين ، انتصروا على الفئـة الكثيرة من العـرب غير المسلمين ، في عهـد الرسول القـائد عليـه أفضل الـصـلاة والسّـلام ومن بعده أيام الرِدَّة وأيـام الفتح الإسـلامي الأول في عهد أبي بكـر الصدِّيق رضي الله عنه .

فهي نصـرة عقيدة لا مـراء ، جـاءت لتبقى ، وقـد بقيت فعلاً .

تلك هي عبـرة فتـح أفغـانستـان ، مـا أحـرانـا أن نستوعبها استيعاباً كاملاً ، ونأخذ منها الدروس لحـاضرنـا ومستقبلنا عرباً ومسلمين .

الفهرس

الفهرس للفوائد

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع . م.

سرمد حاتم شكر السامرائي